

العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية

في إطار «الحوار العربي الاوروبي» انعقدت في مدينة هامبورغ بألمانيا الغربية ندوة هامة بين ١١ - ١٥ نيسان الماضي، بدعوة من جامعة الدول العربية والجماعة الاوروبية المشتركة، أسهم فيها عدد كبير من المفكرين العرب والغربيين. وقد ألقى كلمات الافتتاح، في قاعة فندق «اطلنطيك»، كل من

الدكتور كلاوس فون دونافي، رئيس مجلس مدينة هامبورغ الهنزية الحرة، والسيد هانز ديتريش جنشر، وزير خارجية جمهورية المانيا الاتحادية، والسيد الشاذلي القليبي الأمين العام لجامعة الدول العربية. وتشر «الآداب» في هذا العدد ملفاً خاصاً عن هذه الندوة الهامة تضمنه معظم الدراسات والتعميمات

كلمة الأمين العام للجامعة العربية

السيد نائب المستشار ووزير الشؤون الخارجية
السيد رئيس الندوة
السيد رئيس بلدية هامبورغ
أصحاب السعادة
السيدات والسادة

يسعدني، في افتتاح هذه الندوة أن أحياكم، باسم جامعة الدول العربية وأن أتمنى النجاح لأشغالكم، وإني على يقين أن هذا الاجتماع الذي ينعقد هنا، في مدينة هامبورغ، بوابة الشمال، ومعقل الحداثة، سيكون مناسبة طيبة لتبادل نتاج في ظرفية الأحداث، واختلاف المصالح المتنافسة، للتركيز على التوجهات الجوهرية التي ما فتئت، عبر العصور، تشد الحضارتين العربية والأوروبية الواحدة إلى الأخرى. وإني أرى في انعقاد هذا اللقاء الأول بألمانيا بشائر خير، لأن موطن كانظ وهيجل، وغوته وطوماس مان، وباخ وبيتهوفن، هذا الوطن ما انفك يتسع إشعاعه، قرناً بعد قرن، بفضل ما له من خصال فذة.

ولا يخفى على أحد، ما لهذا البلد من عمق التأثير الفكري على مستوى المعمورة قاطبة بفضل ما يمتاز به من خصال روحية وفلسفية وجمالية، كما لا يخفى أن هذا التوجه الجلي إلى شؤون الفكر لم يبلغ ما بلغه من الثراء والنماء، إلا حينما قبلت ألمانيا الانفتاح على التيارات الخارجية، وإدماج مختلف التأثيرات في ديناميكيتها الخاصة.

ويطيب لي، في هذا المجال، أن ألاحظ، أن العلاقات العربية الألمانية، منذ العصر الوسيط، قد تطورت ونمت، في أهم مقوماتها، تحت شعار الثقافة.

ويطيب لي بصورة أخص أن أؤكد أن هذه العلاقات كانت دوماً بريئة من شوائب العنف، متميزة بسمه التعاطف. ولا نغالي أن نقول إن اهتمام ألمانيا بالحضارة الاسلامية لم ينقطع أبداً منذ أن اكتشف فريديريك هوهنتوفن ما لهذه الحضارة من شأن.

وخير شاهد على ذلك ما كتبه غوته وهين وهيجل وسينجلر، وما قام به المستشرقون الألمان من أبحاث جلييلة. وتجاوباً مع هذا الاهتمام،

تحمس المفكرون العرب، منذ منتصف القرن التاسع عشر، للحضارة والفكر في ألمانيا. وإحقاقاً للحق، فإن الجانبين لم يكن يجدهما في هذا التقارب غير التوق إلى المعرفة، والاقبال الشديد على طلب الثقافة، دون أن يجرهما إلى ذلك أي دافع خفي نحو السيطرة أو الهيمنة. أليس هذا، أيها السيدات والسادة، الاطار الأمثل لما يجمع بيننا اليوم من حوار بين الثقافات، حوار نريد له جميعاً أن يكون كاملاً وهادئاً ودائماً ونريد له أن يسفر عن مفهوم جديد للتبادل، تزول معه العقبات الناشئة عن الضغائن، أو الاحكام المسبقة أو سوء التفاهم.

والحق يقال: فإن حجباً كثيرة كانت تمنع الغربيين من النفاذ إلى حقيقة العالم العربي، وأولا وبالذات، نظرتهم الخرافية إلى الشرق التي تجعلهم يرونه غامضاً باطنياً، وهي رؤية تتجاوز دون شك العالم العربي، ولكنها تشمله، وهي تضيي عليه صورة الخمول، والاغراق في التأمل. وهذه الرؤية مغايرة لحقيقة رجل البيداء الذي كانت حياته كفاحاً لا يني، وصراعاً مع ظروف طبيعية قاسية، ذلك الرجل المغامر الذي جاوز جبال البريني ونهر الغانج، مندفعاً بقوة الايمان والعزيمة، فأسهم بذلك في تمازج الثقافات والحضارات وتمكن من أن يفرض تصوره الخاص لمفهوم الحضارة في تلك العصور الذهبية. ولا أعتقد، أن العالم العربي اليوم يتنزل، هذه المنزلة الخرافية المتميزة بالسلبية والاخلاد إلى الترف والتراجع عن الطلب والجهد.

ومن الأوهام المتعلقة بالشرق تصور آخر يرى أصحابه أن الحضارة العربية حضارة القول. وما لا شك فيه أن جدلية القول والفعل هي في قلب الحوار القائم الآن في خصوص المصير العربي. ولإدراكنا أهمية هذه القضية، فقد نظمت الجامعة العربية في شهر إبريل ١٩٨٢، ملتقى فكرياً بعنوان: «جامعة الدول العربية، الواقع والطموح». وأتيح لي، في تلك المناسبة، أن أذكر بمخاطر «البلاغة الخطائية» التي توشك الكلمة فيها، في كل حين، أن تخرج عن سياقها، وتطمس الواقع، وتقضي إلى الغلو والمغامرة.

وإني واثق أن النزعة البلاغية طرأت على الثقافة العربية الاسلامية في فترة متأخرة، حينما ضعف الاندفاع، واستعيب بالقول عن العمل. لذلك أعتقد أن ما يشهده الأدب العربي اليوم من جهد في طلب الاقتصاد في التعبير، ليس هو علامة تحول، وإنما هو عودة إلى

الأصل، وإلى الكثافة التي تميز به الشعر الجاهلي، وذلك السهل الممتنع الذي اختص به القرآن والحديث.

أيها السيدات والسادة، من بين المآخذ أيضاً التي ما انفكت تتكرر بإلحاح، الادعاء بأن الأمة الإسلامية (والمقصود من خلالها إنما هي الأمة العربية) لا تتلاءم أصلاً، أو هي لا تتلاءم على الوجه المرضي، مع مقتضيات التطور العصري.

والحق يقال إن العلم العربي قد نشأ استجابة لما يدعو إليه القرآن من وجوب معرفة الانسان نفسه، والكون من حوله، ووجوب التدبر في كل أمر. فالحواس تمكن الانسان من إدراك «آيات الله»، وعلى العقل فك رموزها، وهو عمل لا حد له، مادامت آيات الله لا تحصى. وهكذا نتبين أن العلم والايان في الاسلام صنوان.

ولا بد أيضاً من الإشارة إلى أمر آخر، جدير باهتمامنا، وهو أن الحضارة العربية الإسلامية كانت انصهرت في إطارها مختلف الأقليات، ومنها على وجه الخصوص، الأقليات المسيحية واليهودية، وتمكنت فيها هذه الأقليات من التعبير عن ذاتها ومن تحقيق ازدهارها. ولئن كان من المؤكد أن عطاء هذه الأقليات كان رافداً من روافد ثقافة العالم العربي الاسلامي، فإن ذلك لم يمنع هذه الأقليات من أن تتطور بصفة ذاتية. فلقد عاش ابن ميمون، الذي يعتبر من أكبر المفكرين اليهود، في الأندلس ومصر، خلال القرن الثاني عشر، وكتب جل مؤلفاته باللغة العربية. وكذلك الكنيسة القبطية استطاعت أن تزدهر على ضفاف النيل، وأن يكون لها أتباع كثيرون. وكذلك أيضاً شأن المذهب الماروني الذي تنامي في جبل لبنان. وأصبحت الاسكندرية وأطاكية والقدس، الى جانب القسطنطينية، منارات إشعاع للمذهب الأرثوذكسي. وكل هذه المراكز الثقافية أمنت في ديار الاسلام التي لا يغمط فيها حق التعبير، وكان من الحقوق المصونة وبذلك يمكننا أن نقول إن الحضارة العربية، في الواقع، كانت حصيلة مساهمات عديدة، وأنها أفسحت المجال، لمجدلية لطيفة بين محور القيم الإسلامية، ونوايا مختلفة كانت تشكلها شتى الأسر الروحية. وقد أمكنت المحافظة على توازن دقيق بينها، بطريقة مثلى، على القرون، التوازن الذي تروم إسرائيل اليوم نسفه من خلال محاولة فك وحدة لبنان.

أيها السيدات والسادة، ان هذا التداخل والتكامل بين المجموعات الروحية والثقافية يمكن اعتباره من أكبر مقومات الحضارة العربية التي يقرّ الناس أنها إحدى كبريات المراحل في تاريخ البشرية. وأقول «يقرون اليوم»، لأن المساهمة الخصوصية التي أسهمت بها الحضارة العربية الإسلامية، ظلت محجودة دهرًا طويلًا. وكان يظن بها في أفضل الحالات أنها ليست إلا حلقة وصل، كما قيل، بين الاغريق والغرب. والحقيقة أن الثقافة العربية الإسلامية قد تأثرت في نشأتها، فيما تأثرت، بميراث يوناني، وإن الخلفاء الأول قد استقدموا علماء المهند إلى بغداد، وان العرب أخذوا من الصينيين استعمال البوصلة وصناعة الورق، وان جهودا جبارة قد بذلت في الترجمة، بالعراق ومصر وإفريقية والأندلس، وتواصلت عدة قرون. لكن هل كان يكتب البقاء للحضارات الكبرى - سواء منها حضارات رومة أو أثينا أو بيزنطة أو الصين - لو لم تكن في العهود الحاسمة من تاريخها، في

ملتقى مسالك العلم والمعرفة؟

ولا يفوتني أن أؤكد أن العرب حين تلقوا التراث، الذي تلقوه، أعملوا فيه النظر، كما قال غارودي، واجتهدوا فيه، وأثروه بما أضفوا عليه من نظرة إسلامية إلى الكون، ولا بد أن ألاحظ هنا، أن العلماء العرب - خلافاً لليونانيين الذين اهتموا بالتأملات الاستنتاجية - قد ركزوا على الطريقة التجريبية. ولا بد أيضاً من الإشارة إلى أن علماء الرياضيات العرب هم الذين أعادوا اكتشاف العدد وفتحوا، باستنباطهم لعلم الجبر، آفاقاً مذهلة في وجه الرياضيات. وقد مكنت المشاهدة، في علمي الفلك والطب، من اختراع تقنيات جديدة أفضت إلى معرفة الكون والجسم معرفة دقيقة، وفي القرن الرابع عشر - أي قبل هوبز ومونتسكيو بأربعة قرون - اهتدى ابن خلدون إلى قوانين التطور التاريخي، ودحض فكرة الاتفاق والمصادفة، وحدد بدقة متناهية الروابط القائمة بين المؤسسات الاجتماعية والسياسية وبين الواقع المادي وخاصة منه الاقتصادي. وعلى الصعيد الفني، فإن فنون النمنمة والحطاطة والهندسة المعمارية، تطورت بطرافة، رغم العقبات المتعلقة بتصوير الذات البشرية، وجمعت بين ألوان الابداع الساساني والبيزنطي وفرضت تسيقاً جديداً للفضاء الجمالي تتجلى فيه دوماً، آيات الله في خلقه.

هذا حضرات السيدات والسادة، بعض مما أنجزته الحضارة العربية الإسلامية. وقد كان له أبعد الأثر في النهضة التي سشهدها أوروبا ابتداء من القرن الثالث عشر. ولا أدل على ذلك مما كان يؤكد أحد رواد الطرق التجريبية بأوروبا منذ القرن الثالث عشر، وهو روجيه بيكن، من أن السبيل الوحيدة إلى المعرفة الحقيقية، بالنسبة إلى معاصريه، تكمن في دراسة اللغة العربية.

حضرات السيدات والسادة إن بعض الدول العربية، مثلاً، قد دخلت طور النهضة منذ ما يزيد على القرن، ثم إن المدارس والمعاهد والجامعات ما فتئت، منذ أحقاب طويلة، تعلم تعليماً غاية في التنظيم، وإن كان يزداد، يوماً بعد يوم، ابتعاداً عن الواقع. ولنذكر أن العالم العربي كانت له، دائماً، هياكل إدارية ناجعة. وأن الحياة الحضارية استقرت فيه منذ آلاف السنين، وأن الفنون والحرف قد لعبت دوراً مهماً في حياة سكان الحواضر، وأن التجارة الداخلية والخارجية كانت متسعة نسبياً، وان أمن المدن والبوادي كان مضموناً بمقدار ما كان مضموناً في أوروبا في القرن التاسع عشر. وبذلك ندرك أن المجتمعات العربية لا تواجه الأزمة الحديثة بنفس العوائق التي تواجهها بها عدة مجتمعات أخرى تخلصت حديثاً من الاستعمار، زد على ذلك أن للبلاد العربية من المصادر المنجمية والطاقة والامكانيات الزراعية ما يكفي للنظر إلى المستقبل بدون قلق كبير. ولكن بين هذه المعطيات والآفاق التي تمتحها وبين الواقع الحالي، مسافة تبعث على التفكير.

فبسبب عدم توفر الهياكل اللازمة للبحث القويم، فإن بعض مجتمعاتنا قد فضلوا العمل في أوروبا أو في أمريكا الشمالية. وإني واثق أن هذه المشكلة التي يعاني منها العالم العربي والعالم الثالث بأسره، ستكون محل اهتمامكم. فهجرة العلماء، ليست كهجرة العملة، إذ هي تفقدنا ثمرة جهد دؤوب أنفقته المجموعة بأسرها وضحت في سبيله. وليست المسألة مسألة أخلاقية فحسب، بل أيضاً مسألة سياسية، أعني أنها مرتبطة بقضية

التقسيم الدولي للعمل والسيطرة على التقنيات والعلوم.

وهذا يفضي بنا إلى مسألة نقل التكنولوجيا التي تتصدر، بطبيعة الحال، الحوار الثقافي العربي الأوروبي. ما هي أنواع التكنولوجيا التي ينبغي توريدها، ووفق أية شروط، وبأية كلفة؟ هذه تساؤلات عليكم تعميمها وتحليلها، لأن مصير العلاقات الثقافية بين المجموعتين متوقف عليها..

هذا المد من الجنوب إلى الشمال الذي مر عبره التقدم من العالم العربي إلى أوروبا، هل سيعقبه مد آخر من الشمال إلى الجنوب بدونه لا يمكن تصور الحوار ولا التبادل، بل بدونه لا يمكن إلا تكريس علاقات الهيمنة؟

إن الحوار العربي الأوروبي لا يكون مثمرا إلا إذا محاور العالم العربي مع أوروبا وهو في ازدهار وتطور حقيقي. ولن تستطيع الدول الأوروبية أن تتخذ من الدول العربية شركاء يتعاونون معها، في هذه الأوقات الحرجة، إلا إذا كانت الدول العربية في تقدم مطرد.

لكن الحضارة العربية الإسلامية تواجه اليوم مخاطر لم يسبق لها مثيل. فقد تبين، يوما بعد يوم، منذ خمس وثلاثين سنة، أن إنشاء دولة إسرائيل لا يعني البتة، تركيز حضارة ذات جوهر يهودي، في الإسلامي، فإن المسيحية تظل دوماً إحدى مقوماتها الرئيسية الأخرى كما رأينا آنفاً. ولا هو يعني التعايش، في مهبط الوحي، بين الحضارات النابعة من الديانات السماوية الثلاث. بل يعني ابتداء نغز آخر من «الحضارة». ولا أدل على ذلك مما تسببت فيه إسرائيل من حروب وتوسع وتشويه للمعالم والآثار، ومسح لكل بقايا التراث العربي.

إن الحضارة العربية الإسلامية، تواجه، فعلا، مخاطر كبيرة. وهي مهددة، في أصقاع مختلفة من الشرق الأوسط وسيصبح ذلك شأن المنطقة كلها، بعد أمد غير طويل. والمنطقة معرضة للمخاطر، عاجلا، في أحد معاقلها الجليلة، أي مدينة القدس. هذه المدينة المحتلة منذ جوان ١٩٦٧ المدرجة بقائمة التراث العالمي، والتي تعتبرها اليونسكو «كلا متناسقا يرتن توازنها وطابعها الخصوصي بمدى توافق عناصرها» هي اليوم هدف لمشروع كبير يسعى لحو طابعها العربي، بتمزيق نسيجها العمراني، وتقويض مبانيها ذات الطراز العربي وطرد سكانها الفلسطينيين تدريجياً وبما أن الحفريات تهدد أسس أهم المعالم الإسلامية والمسيحية، فقد انقلب علم الآثار عندئذ إلى أداة هيمنة، شأنه شأن قوة السلاح.

وإني على يقين أن أوروبا معنية بذلك، بصورة مباشرة، لأن في تهديم القدس العتيقة ضياع نصيب معتبر من تاريخ أوروبا إلى الأبد. ولهذا السبب، ولأننا مدعون معا - عربا وأوروبيين - إلى أعمال مشتركة وهامة، فإني ما أنفك أكرر أن على أوروبا أن تمضي في التزامها إلى أبعاد ما ذهبت إليه حتى الآن لتسير عملية السلم في الشرق الأوسط.

إن الهيمنة الاسرائيلية، تتجه الآن إلى لبنان، بعد أن اكتسحت فلسطين. فبعد غزو لبنان الوحشي، وقصف المدن والقرى بوابل من الحديد والنار، ودك صور وصيدا التاريخيتين، وبعد مذابح صبرا

وشاتيلا، هاهي إسرائيل تقيم العديد من العوائق لإطالة المفاوضات وتلكأ، سعيها منها لكسب الوقت حتى تتمكن من إحداث تغييرات لا رجعة فيها في البنية الاجتماعية والديمقراطية للضفة الغربية. ومن وراء كل هذه الاستراتيجية، فإن إسرائيل لا شك تريد أيضا نسف التوازن الدقيق الحزيب، الذي يقوم عليه النموذج اللبناني وما يتميز به من لطف وجمال وذكاء.

وينبغي ألا ينسينا التمزق الحالي الجانب المثالي والمشرق من تاريخ لبنان الحافل، أعني بذلك التعايش، منذ الأحقاب الطويلة، بين عدة طوائف متفرعة من قطبين روحيين، هما الاسلام والمسيحية، وينتمي جميعا إلى العروبة. كما أن ما تذكاه أو تقتله إسرائيل من نزاعات يجب أن لا يحجب عنا ما تم إنجازه: دولة ومجتمع لها مقومات الحدادة والازدهار، من اقتصاد نشيط، وثقافة تتبوأ، في العالم العربي، مركزا طلائعيا.

إن إسرائيل، بهجومها على لبنان وباحتلال العديد من مدنه وقراه، وبافتعال المناورات لتأخير الانسحاب، تسعى للحصول على امتيازات سياسية واقتصادية، وربما ترابية خاصة في جنوب لبنان، وتسعى كذلك لمنع الادارة الأمريكية من تركيز اهتمامها على الشرق الأوسط. وبالتالي فإنها تسعى لتحويل الانتباه من الضفة الغربية حيث تتواصل، من خلال زرع المستوطنات سياسة الأمر الواقع المتمثلة في العمل على ضم هذه الأرض العربية، ضا نهائيا. هذه الأرض التي يعتبرها بيغن، وفقاً لتأويلاته الغربية للتوراة، جزءاً من إسرائيل الكبرى.

إن لبنان همزة الوصل الرئيسية بين الشرق والغرب. وعلينا جميعاً، عرباً وأوروبيين، ورثة هذه الحضارة المتوسطة والفريدة في نوعها أن نساهم بما أوتينا من طاقات ووسائل، في المحافظة على سلامته، وفي دعم السلطة الشرعية اللبنانية لتقوم بوظائفها في سائر مناطق البلاد.

إن أوروبا مدعوة إلى الخروج من موقف الانتظار وإلى تحديد سياسة حازمة ونشطة، في نطاق البحث عن حل حقيقي لنزاع الشرق الأوسط. وهي مدعوة إلى استخدام ما لها من نفوذ لدى الولايات المتحدة، لحملها على اتخاذ موقف حازم مسؤول إزاء حليفها إسرائيل. السيد الرئيس،

يبدو لي أن من المهام الكبيرة، التي يدعى إليها الجانب الأوروبي، مزيد الاهتمام بمعرفة الحضارة العربية الإسلامية، والتفتح عليها.

وبالمقابل، فمن الضروري أن يعمل العالم العربي على الخروج من موقفه الانطوائي، وأن يدرس، بدوره، ويحلل العالم الغربي، وأن يخضعه لنظرة النقدية الخاصة به.

وإني أسأل المثقفين العرب: أليس أفضل لتأكيد الذات وإقامة الحججة على النضج، أن يأنس الإنسان من نفسه الثقة ما يؤهله لأن يعرف، معرفة منهجية موضوعية، حضارة فرضت تفوقها المادي؟ أليس ذلك أفضل من الرفض البات، أو الاقتصار على محاكاة أنماطها بكل سلبية؟ أو ليس من باب إثبات الرشد والحرية، أن نعبد النظر فيما كنا نحسبه نموذجياً؟ أو ليس في ذلك خدمة للحوار الحقيقي بين مجموعتين؟